

مجلـة

آداب الرافدين

علمية محكّمة فصليَّة

تصدر عن كلية الآداب

العدد: الخامس وسبعون

السنة: الثامنة والأَربعون

الموصـل

١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

الهيئة الاستشارية

- أ.د. وفاء عبد اللطيف عبد العالي – جامعة الموصل/ العراق (اللغة الإنكليزية)
- أ.د. جمعة حسين محمد البياتي – جامعة كركوك / العراق (اللغة العربية)
- أ.د. قيس حاتم هاني الجنابي – جامعة بابل/ العراق (تاريخ وحضارة)
- أ.د.حميد غافل الهاشمي – الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية/ لندن (علم الاجتماع)
- أ.د. رحاب فائز أحمد سيد – جامعة بني سويف / مصر (المعلومات والمكتبات)
- أ. خالد سالم إسماعيل – جامعة الموصل/ العراق (لغات عراقية قديمة)
- أ.م.د. علاء الدين احمد الغرايبة – جامعة الزيتونة/ الأردن (اللسانيات)
- أ.م.د. مصطفى علي دويدار – جامعة طيبة/ السعودية (التاريخ الإسلامي)
- أ.م.د. رقية بنت عبد الله بو سنان – جامعة الأمير عبدالقادر/ الجزائر (علوم الإعلام)

الأفكار الواردة في المجلة جميعاً تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: خمسة وسبعون	السنة: الثامنة والأربعون

رئيس التحرير	
أ.د. شفيق إبراهيم صالح الجبوري	
سكرتير التحرير	
أ.م.د.بشار أكرم جميل	
هيئة التحرير	
أ.د.محمود صالح إسماعيل	أ.د.عبد الرحمن أحمد عبدالرحمن
أ.د.مؤيد عباس عبد الحسن	أ.د.علي أحمد خضر المعماري
أ.م.د.سلطان جبر سلطان	أ.م.د. أحمد إبراهيم خضر اللهيبي
أ.م.د. زياد كمال مصطفى	أ.م. قتيبة شهاب احمد
المتابعة والتقويم اللغوي	
م.د.شيبان أديب رمضان الشيباني	– مدير هيئة التحرير
أ.م.أسامة حميد إبراهيم	– مقوم لغوي/ لغة الإنكليزية
م.د. خالد حازم عيدان	– مقوم لغوي/ لغة عربية
م. مترجم.إيمان جرجيس أمين	– إدارة المتابعة
م. مترجم.نجلاء أحمد حسين	– إدارة المتابعة
م.مبرمج. أحمد إحسان عبدالغني	– مسؤول النشر الإلكتروني

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٣٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

المحتويـات

إطلاق المفرد وإرادة الجمع في القرآن الكريم

م.د. رياض يونس خلف*

تأريخ التقديم: ٢٠١٧/١٢/٦   تأريخ القبول: ٢٠١٨/١/٣

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإنَّ الاستغناء بلفظِ المفردِ عن لفظِ الجمعِ وقعَ في كلام العرب وفي أشعارهم ، ونصَّ أهلُ اللُّغة على وقوعه في القرآن العظيم ، منهم : أبو عُبيدة (ت٢٠٩هـ) وابنُ قُتيبة (٢٧٦هـ) والباقوليُّ (ت٥٤٣هـ) والزركشيُّ (ت٧٩٤هـ) والسيوطيُّ (٩١١هـ) وغيرهم . قال أبو عبيدة : "ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد الذي له جِماع منه ، ووقع معنى هذا الواحد على الجميع ، قال : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ غافر : ٦٧ ، في موضع : أطفالاً.... وقال : ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾الحاقة : ١٧ ، في موضع : والملائكة .

ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الجميع على لفظ الواحد ، قال : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ التحريم : ٤ ، في موضع : ظهراء "[(١)] .

وتبعه القُتَبي بقوله : " ومنه واحد يراد به جميع ، كقوله : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ الحجر : ٦٨ ، وقوله : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الشعراء : ١٦ ، وقوله : ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ الحج : ٥ ، وقوله : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾البقرة : ٢٨٥ ، والتفريق لا يكون إلا بين اثنين فصاعداً ..."[(٢)] . ثم قال : " ومنه أن تصفَ الجميعَ صفةَ الواحد ،

---

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية الإنسانية/ جامعة الموصل .

(١) مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت ٢٠٩هـ) تحقيق : محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١٣٨١هـ : ج١/ص٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ) علَّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م : ص١٧٣ .

نحو قوله : ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ المائدة : ٦ ، وقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ التحريم : ٤ وتقول: قومٌ عدْلٌ ، قال زهير (الطويل) :

مَتى يَشْتَجِرْ قَوْمٌ تقُلْ سَرَواتُهُمْ : هُمُ بَيْنَنا فهُم رِضاً وَهُمُ عدْلُ "[١] .

أي : عُدُول مرضِيونَ .

وإطلاق ألفاظِ السمعِ ، والضيف ، والطَرْف ، والجُنُب ، والعدل وغيرها مفردةً ، إنَّما يراد به الإشارة إلى أنها في الأصل مصادر ، وأما غيرها كألفاظ الإنسان ، والمَلَك ، والنَّجم والطاغوت ، إنَّما يراد بها الجنس ، وكلا النوعين أعني المصادر وأسماء الأجناس لا يُثنَّى ولا يُجمع في أصله ، لأنَّه يدل على القليل والكثير . قال ابن جني (ت٣٩٢هـ) : " فلما كان الغرض في قولهم : رجلٌ عدلٌ ، وامرأةٌ عدلٌ ، إنَّما هو إرادة المصدر والجنس جُعِل الإفراد والتذكير أمارةً للمصدر المذكر "[٢] .

وقال الباقوليُّ : في الباب الثاني والأربعين : "هذا باب ما جاء في التنزيل من المفرد ويراد به الجمع ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ البقرة : ٢١٣ ، يعني : الكُتُب ، لأنَّه لا يجوز أن يكون لجميع الأولياء (الأنبياء) كتاب واحد..."[٣] .

---

(١) المصدر نفسه : ١٧٤ ، وفي الأصل (من يشتجر) والبيت في ديوان زهير ابن أبي سلمى ، شرح : علي حسن فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م : ص٨٥ ، وهو كما اثبتنا ، غير أنه في الديوان بضم ميم (فهم) ولعله وهم ؛ لأن الوزن لا يستقيم . ويصلح بضم الميم لو حذفت الفاء(هُمُ) فيوافق الضمير أمثاله في البيت .

(٢) الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت : ج٢/ص٢٠٤ .

(٣) إعراب القرآن المنسوب للزجاج ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، الباقولي (ت٥٤٣هـ) تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ودار الكتب اللبنانية ، بيروت ، ط٤ - ١٤٢٠هـ : ج٢/ ص٧٦٣ و ٧٦٦ .

وأما الزَّركَشيُّ فقال : " إفراد ما أصله أن يجمع ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ القمر : ٥٤ ، قال الفَرَّاء (ت٢٠٧هـ) : الأصل : الأنهار [١] ، وإنما وحَّد ؛ لأنَّه رأس آية ، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي... وقوله : ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ الكهف : ٥١ ، قال : ابن سِيده (ت٤٥٨هـ) في المُحكَم : أي أعضاداً ، وإنَّما أفردَ ليعدلَ رؤوس الآي بالإفراد ، والعَضُد : المُعِين "[٢] .

وذكره في موضع آخر من كتابه تحت عنوان : (خطاب الجمع بلفظ الواحد) ، مستشهداً بالآيات وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ العصر : ٢ ، فأفرد لفظ الإنسان ، والمراد كل إنسان بدليل الاستثناء بعده ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ مشيراً إلى أنه يكثر في الاسم الواقع خبراً كقوله سبحانه : ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ الحجر : ٦٨ ، ولم يقل : ضيوفي ؛ لأنَّه مصدر [٣] .

وكذا سمّاه السيوطيُّ استغناءً ، فقال : " الاستغناء به – أي بالمفرد– عن الجمع نحو : ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان : ٧٤ ، ولم يقل : أئمةً ، كما قال : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ الأنبياء : ٧٣ ، ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ القمر : ٥٤ ، أي : أنهار "[٤] .

---

(١) هنا انتهى كلام الفراء ، انظر معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح شلبي، دار المصرية ، القاهرة ، ط١ : ج٣/ص١١١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م : ج١/ص٦٣-٦٤ ، وانظر المحكم والمحيط الأعظم : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت٤٥٨هـ) تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م : ج١/ص٣٩٠ .

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن : ٢/٢٣٣-٢٣٤ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م : ج٣/ص٣٤٢ .

وما أكثرنا من أقوال أهل العلم في ورود المفرد موضع الجمع في القرآن إلا لأن سيبويه(ت١٨٠هـ) يجعله مقصوراً على الشعر ، وهذا نصُّ كلامه : "وليس بمستنكَرٍ في كلامهم أن يكونَ اللفظ واحداً والمعنى جميع "[١] . لكنه يرى أَنَّ وضع المفرد موضع الجمع ضرورةٌ شعرية لا تُستعملُ في الكلام واستشهد على صحته في الشِّعر بقول علقمة الفحل[٢]:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظامُها فَبِيضٌ وأَمَّا جِلْدُها فصَلِيبُ

أراد : جلودها فأفرد ؛ لأَنَّه قد عُلم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد[٣] .

وساق أيضاً قول الشاعر :

لا تُنْكِرُوا القَتْلَ وقد سُبِينا في حَلقِكُمْ عَظْمٌ وقد شَجِينا[٤]

أراد : في حلوقكم ، لكنه أفرد .

ثم قال : " ومما جاء في الشَّعرِ على لفظ الواحد يراد به الجميع :

كُلُوا في بَعْضِ بَطنِكُمُ تَعِفُّوا فإنّ زمانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ"[٥] .

---

(١) الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت ١٨٠هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م : ج١/ص٢٠٩ .

(٢) انظر ديوان علقمة بن عَبَدة : شرح سعيد نسيب مكارم ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م : ص٢٥.

(٣) انظر الكتاب : ٢٠٩/١ ، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ) تحقيق : هشام سمير البخاري ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م : ج١/ص١٩٠ ، والحسرى : جمع حسير ، وهي النّاقة التي أعيت ، والصليب : اليابس . انظر خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب : عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م : ج٧/ص٥٦٠ . ومما يحسّن إفراد (جلدها) أنه ذكر ما قبله بلفظ الجمع (عظامها) ، والآية كذلك إذ أفرد (سمعهم) لأنه ذكر ما قبله وما بعده بلفظ الجمع (قلوبهم ، أبصارهم) .

(٤) انظر الكتاب : ٢٠٩/١ ، ولسان العرب : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ) ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة : ج١٤/ص ٤٢٣ .

(٥) الكتاب : ٢١٠/١ ، والمعنى كلوا في بعض بطونكم ، والبيت بلا نسبة ، ولمن أراد الاستزادة فلينظر في خزانة الأدب : ٥٥٩/٧ ، الشاهد : ٥٧٥ .

وتبعه المبردُ (ت ٢٨٥هـ)[١] مشترطاً أن يكون في الكلام ما يدلُّ على قيام المفرد مقام الجمع . وعللَّ الفَرَّاءُ ذلك بقوله : " وجاز التوحيد لأنَّ أكثرَ الكلام يُواجَه به الواحدُ ، فيُقال : خُذْ عن يمينِك وعن شمالِك ، لأنَّ المُكلَّم واحدٌ والمُتكلِّم كذلك ، فكأنَّه إذا وحّد ذهب إلى واحد من القوم "[٢] . ولذا اُلتُزم إفراد المصدر وتذكيره ، قال ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)[٣] :

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرَا فَالْتَزَمُوا الإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَا

وإفراد اللفظ مع إرادة الجمع كثيرٌ في القرآن ، وليس كما يرى سيبويهِ والمُبرِّدُ بأنَّه خاصٌ بالشِّعر . قال صاحبُ الخِزانة : " وَظاهرُهُ أَنَّه غير ضرورة "[٤] . وإلى هذا ذهب الزَّجاجُ (ت٣١١هـ) ومَكيّ ابن أبي طالبٍ (ت٤٣٧هـ) وغيرهما ، وبعض المعاصرين كالشَّنقيطيِّ (ت١٣٩٣هـ) وغيره ، وسأذكر بعض أقوالهم في جوازه نثراً في موضعه بإذن الله سبحانه .

وبعد هذا العرض الموجز نجد أنَّ أهل اللغة اكتفوا بذكر الشواهد على صحة وقوع المفرد موقع الجمع ، لكنهم لم يذكروا المعنى الذي اقتضى ذكر لفظ الإفراد بدلاً عن اللفظ المجموع غالباً ، مع أَنَّ الأصل يقتضي بأن يُخبرَ عن المفرد بمثله ، وعن الجمع بمثله ، وأن يُوصف كلٌّ منهما بما يناسبه ، وقد دفعني ذلك إلى البحث وراء العلل المقصودة من هذا الأسلوب ، ولعلِّي أقفُ عندها بما ينفعني والمسلمين ، آمين .

وقد استبعدتُ في ذا البحث ما يدل على الجمع بصيغته من ألفاظ المشاركة التي يستوي فيها المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، نحو (فَعيل) بمعنى مفعولٍ ، كقتيلٍ وجريحٍ ، قال سبحانه : ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ التحريم : ٤ ، أي : ظهراء .

---

(١) انظر المقتضب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت، ١٣٨٢هـ=١٩٦٣م : ج٢/ص١٧١ .

(٢) معاني القرآن : ١٠٢/٢ ، وانظر خزانة الأدب : ٥٦١/٧ .

(٣) ألفية ابن مالك في النحو والصرف ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ) ضبط نصوصه : أشرف بن يوسف ، دار العقيدة – القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م : ص: ٤٥ .

(٤) خزانة الأدب : ٥٥٩/٧ .

وكذا ما كان من الصِّفات على وزن (فَعولٍ) بمعنى فاعل ، كصَبورٍ وشكُورٍ وغَفور وكَفور ، قال تعالى : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الشعراء : ١٦ ، وعلَّة استبعاده أنَّه قياس ، إذا عُلم الموصوف وتبيّن جنسه ، وما أنا بصدده يكون في الأسماء ، والأول في الصفات هو مما لا يخفى .

إطلاق المفرد وإرادة الجمع في القرآن الكريم

إطلاق المفرد مع إرادة الجمع ظاهرة أسلوبية وردت في القرآن فضلاً عن كلام العرب ولم تكن هذه الظاهرة مجرد تركيب لغوي ، أو تنويعاً للألفاظ ، أو عدولاً لرعاية الفواصل القرآنية فحسب كما يرى بعضهم(١) ، بل كانت صنعةَ عالمٍ بالصنعة ، فكل لفظ ورد مفرداً في موضع جمع ، كانت وراءه غاية ومقصد ، وسيتبين ذلك في مواضعه بإذن الله تعالى .

والمقصود من لفظ (المفرد) في العنوان : المصادر وأسماء الأجناس وغيرهما ، والتي وُضعت موضع الجمع ، وأعني بالجمع جموع التكسير وجمعي السلامة .

وقد رتبت الألفاظ المفرد الواردة موضع الجمع بحسب ترتيبها في القرآن الكريم ؛ لأنَّ ترتيب سوره وآياته وقف من العزيز الحكيم ، وهي على النحو الآتي :

وضع (السمع) موضع (الأسماع)

وضع (أول كافر) موضع (أول كافرين)

وضع (السحاب المسخر ، موضع المسخرات)

وضع (سحاب مركوم ، موضع مركومات)

وضع (الجُنُب) موضع (أجناب أو جُنُوب أو جُنُبُون)

وضع (اليمين) موضع (الأَيمان)

وضع (الضيف) موضع (الأضياف أو الضيوف أو الضيفان)

وضع (طفلاً) موضع (أطفالاً)

وضع (سامراً) موضع (سُمّاراً أو سُمّراً أو سامرين)

---

(١) ذهب ابن سيده إلى أن الإفراد استغناء عن الجمع جاء لرعاية الفاصلة ، انظر المحكم والمحيط الأعظم : ١/٣٩٠ . وتبعه في هذا الزركشي ، انظر البرهان في علوم القرآن : ١/ ٦٣ .

وضع (إمام) موضع (أئمة)

وضع (الدُّبُر) موضع (الأَدبار)

وضع (نهر) موضع (أنهار)

وضع (القصر) موضع (القصور)

وضع (السمع) موضع (الأسماع)

اقترن **السَّمعُ** بالأبصار والقلوب والأفئدة والجلود ، ولم يردْ لفظ **السَّمع** في القرآن مجموعاً في حال ، وسواء أكان نكرة كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ الأحقاف:٢٦ ، أم معرفة بالإضافة كقوله تعالى : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ البقرة : ٧ ، أم معرفة بـ(أل) كما في قوله : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يونس : ٣١.

وسواء اقترن لفظ السَّمع بالأبصار والقلوب أو الأفئدة أو الجلود ، أو لم يقترن بواحد منها، فمن ما ورد مقروناً بها فضلاً عما ذُكر قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فصلت : ٢٠ ، وقوله سبحانه : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الأنعام : ٤٦ ، وقوله عز وجل : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ تَشْكُرُونَ﴾ المؤمنون : ٧٨ .

وممَّا ورد فيه **السَّمعُ** مفرداً غير مقرون بشيء مما ذكر قوله عز وجل : ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ الحجر : ١٨، وقوله تعالى شأنه : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ الشعراء: ٢١٢ ، ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ الشعراء : ٢٢٣ ، والسَّمع هنا فعْل بمعنى مفعول أي : سمعٌ بمعنى مسموع[١] ، ولذا يكون مفرداً معرفة بـ(أل) دائماً .

---

(١) انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت : ج٣/ص٣٤٧ ، وتفسير النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧١٠هـ) تحقيق : مروان محمد الشعار ، دار النفائس ، بيروت ، ٢٠٠٥م : ج٢/ص٢٢٥ .

ومن الملاحظ أَنَّ **السَّمع**– إذا اقترن بغيره من الأعضاء– لا يفارق ذكر **الأبصار** ، وإن يُفارقْ يقترنْ بآلة الإبصار ، ألا وهي العين ، كقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ الكهف : ١٠١ ، أو بفعل الإبصار كقوله : ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ هود : ٢٠ .

وأمَّا البَصر فجاء مفرداً في قوله تعالى : ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ النجم : ١٧ ، ومجموعاً غير مقترن بالسمع في قوله سبحانه : ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ الأحزاب : ١٠ ، ومقروناً به كما في الآيات السابقات .

واختلف العلماء في سبب إفراد **السَّمع** وجمع الأبصار والقلوب في قوله تعالى : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ البقرة : ٧ ، فذكر بعضهم عِللاً لفظية ، وذكر آخرون علة معنوية ، وأنا أبتدِئ بالعلل اللفظية التي منها :

أَنَّ القرآن إنَّما أفرد **السَّمع** لأنَّه في الأصل مصدر : سَمِع يسمَع سَمْعاً ، والمصدر– كما هو معلوم– لا يُثنى ولا يُجمع ، إن لم يَتعددْ ؛ فلُمح فيه ذلك الأصل ، فأُفرد ؛ لأنَّه يدل على القليل والكثير ، وقد تقرَّر في علوم العربية أَنَّ كُل مفرد هو اسم جنس ، فمن أساليب العربية أن يُطلق مفرده مرادًا به الجمع[1] بخلاف البصر أو القلب أو الجلد فهي أسماء يجوز جمعها ، فلو أفردت لم تدل على الجمعية .

---

(١) انظر جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م : ج١/ص٣٨٢ ، ومفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (تفسير الرازي) : فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي (ت ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ : ج٢/ص٤٩ ، والجامع لأحكام القرآن : ١/١٩٠ ، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ : ج١٤/ص٢٠٢ ، وتحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير والتنوير) : محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م : ج١/ص٢٥٥ .

وهذه العلَّة غير منطقية كما ترى لأنَّ القرآن لو أفرد (قلوبهم ، وأبصارهم) فقال : (قلبهم، وبصرهم) لدلَّ على الجمع من إضافته إلى الضمير ، لأنَّ من المعلوم أنَّهم لا يكون لهم قلبٌ واحد ولا بصرٌ واحد . ويدل على عدم صحته أيضاً أنه قرئ : (وعلى أسماعهم)[١] . ولا أرى أَنَّ علَّة إفراد السَّمع بكونه مصدراً صحيحةً ؛ لأنَّ البصرَ أيضاً مصدر بَصُر أو بَصِر ، كما ورد في القاموس المحيط[٢] . ولذا أجاز الطبريُّ (ت٣١٠هـ) وغيره أن يُفرد البصر كالسَّمع مع إرادة الجمع قال : " ولو فُعل بالبصر نظير الذي فُعل بالسَّمع ، أو فُعل بالسَّمع نظير الذي فُعل بالأبصار – من الجمع والتّوحيد– كان فصيحاً صحيحاً لما ذكرنا من العلَّة"[٣].

وذكر الزركشيُّ[٤] عِلَّة لفظية أخرى ، وهي : أَنَّ (سَمْع) لم يجمع على (أسماع) ؛ لأنَّ (فَعْل) صحيح العين لا يُجمعُ على (أفعال) قياساً في الغالب ، موافقةً لسيبويه في أنَّ جَمعه على (أفعال) ليس بالباب في كلام العرب ، وإن وردت فيه ألفاظ ؛ كأفراخ ، وأجداد ، وأفراد[٥] . وهو بهذا يريد أنَّه لما لم يكن له جمع تكسير اكتفى بدلالة الجنس على الجمع .

وهنا أقول : ورد في كلام العرب ما يخالف هذا الحُكم ، لذا قرَّر مجمع اللغة القاهريّ جواز جمع (فَعْل) اسماً صحيح العين على (أفعال) مطلقاً مثل : بحث وأبحاث[٦] .

واضطرّ عدم المطابقة بين المفرد والجمع في هذه الآيات بعض أهل العلم إلى تقدير مضاف محذوف وهذه علة لفظية أخرى ، وتقدير الكلام : ختم الله على قلوبهم وعلى

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن : ١٩٠/١ ، ومفاتيح الغيب : ٤٩/٢ ، وتفسير النسفي : ٣٩/١ .

(٢) انظر القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٨ ، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م : ص٣٥١ .

(٣) جامع البيان : ٣٨٢/١ .

(٤) انظر البرهان في علوم القرآن : ٣٥٧/٣ .

(٥) انظر الكتاب : ٥٦٨/٣ .

(٦) انظر كتاب في أصول اللغة : أخرجها محمد شوي أمين ، ط١ ، ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م : ج٢/ص٢٧–٢٨ .

مواضع سمعهم ، أو حواسّ سمعهم ، ثم حذف المضاف . وحجتهم في ذلك أَنَّ الختم يقع على محل السمع لا على السمع(١).

ومن أحسنِ العِلَلِ اللفظية قولُ أهل التَّفسير : إنَّه لمَّا أُضيف **السَّمع** إلى الجماعة دل على أنه يُراد به أسماع جماعة ، كما جاء في البيت الشِّعري وأَما جِلْدُها فصَلِيبُ . . .(٢) . وكذا في الآية ، فإنّه لمَّا أُمن اللبس جيء باللفظ مفرداً ؛ لأنّه قد عُلم أَنَّ لكل واحد سمعاً . ويدلُّ على هذا قول الشَّاعر(٣) :

**كُلُوا في بَعْضِ بَطنِكُمُ تَعِفُّوا		فإنّ زمانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ**

فأفرد البطن وأراد البطون لمّا أمن اللبس ، إذ قد عُلم أنّ لكل واحد بطناً . قال الطبريُّ : " وإنما جاز ذلك عندي ؛ لأنَّ في الكلام ما يدلّ على أنَّه مُراد به الجمع ، فكان في دلالته على المراد منه ، وأداء معنى الواحد من السَّمع عن معنى جماعة ، مُغنياً عن جِمَاعه "(٤).

وقال الفَرَّاء في تفسير قول الله سبحانه : ﴿ **وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا** ﴾ المائدة : ٣٨ : " وقد يجوز أن تقول في الكلام : السَّارق والسَّارقة فاقطعوا يَمينهما ؛ لأنَّ المعنى: اليمين من كل واحد منهما . . . ويجوز فِي الكلام أن تقولَ : ائتني برأس شاتين ، ورأْسَيْ(٥) شاة . فإذا قلت : برأسيْ شاة ، فإنما أردت رأسَي هذا الجنس ، وإذا قلت : برأس شاتين، فإنَّك تريد به الرَّأس من كلِ شاةٍ "(٦) .

والمقصود بهذا والله أعلم أنَّه إذا اجتمع اسما جنسٍ جاز للمتكلم أن يُفردَ أحدَهما ويُثنّي الآخر ، اكتفاءً بالعلَّة العقلية ، فيُعلم من تثنية أحدهما أنَّ المرادَ بالآخر التثنية أيضاً ، فيجوز على هذا أن تقولَ : اشترْ لي رأسَ كبشَينِ أو رَأسَي كَبْشٍ .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب : ٤٩/٢ ، والجامع لأحكام القرآن : ١٨٩/١ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن : ١٩٠/١ .

(٣) انظر الكتاب : ٢١٠/١ ، والبيت بلا نسبة ، وهو في خزانة الأدب تحت الشاهد (٥٧٥) انظر : ٥٥٩/٧.

(٤) جامع البيان : ٣٦١/١ .

(٥) في الأصل (برأس شاة) وهو وهم .

(٦) معاني القرآن : ٣٠٨/١ .

ومن تلك العلل اللفظية قولهم : إنّ **السَّمع** إنَّما أُفردَ لأنَّه وقع بين جمعين (قلوبهم، وأبصارهم) وذلك يدلُّ على أنَّ المراد منه الجمع أيضاً[(١)] ، وهو كقول الله تعالى : ﴿**ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾البقرة : ٢٥٧ ، وقوله : ﴿**عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ**﴾ النحل: ٤٨ ، فدلت الظلمات والشمائل على أنَّ المراد من النور واليمين : الأنوار والأيمان . قال الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) : "إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ المفرد"[(٢)]

وأما العلَّة المعنوية فهي : أنَّ **السَّمع** في هذه الآية وأمثالها ، إنَّما أفرد في موضع الجمع لغرض بلاغي ، ولأمر معنوي ، وهو اعتبار وحدة المسموع وهو الصوت ، وجُمع القلب والبصر لتنوع المدركات والمرئيات ، وبذا استدلَّ بعضهم على فضل السَّمع على البصر؛ لأنَّه يُدرك من الجهات السِّت ، وفي النُّور والظلمة ، ولا يُدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة ، وبواسطة ضِياء[(٣)] .

وقيل : أفرد السَّمع وجمع الأبصار ؛ لأنَّهم يتساوون في السَّمع ، ولا يتساوون في الإبصار[(٤)] .

وللطاهر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) لطيفة أحببت أن أوردها إذ قال : " وقد تكون في إفراد السَّمع لطيفة رُوعيت من جملة بلاغة القُرآن ، هي أنَّ القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتَّفكر في أمر الإيمان والدِّين مختلف باختلاف وضوح الأدلة ، وبالكثرة والقلَّة ، وتتلقى أنواعاً كثيرة من الآيات ، فلكل عقل حظه من الإدراك . وكانت الأبصار أيضاً متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق وفي الأنفس التي فيها دلالة ، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعِبَر والمواعظ ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جُمعت . وأما الأسماع فإنَّما كانت تتعلق بسماع ما يُلقى إليها من القرآن

(١) انظر مفاتيح الغيب : ٤٩/٢ .

(٢) روح المعاني : ٣٩٤/٧ .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن : ١٨٩/١ ، ومفاتيح الغيب : ١٨٨/١٢ .

(٤) انظر تفسير ابن عرفة : أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عرفة (ت ٨٠٣هـ) ، تحقيق : جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨م : ج٤/ص٢٦٥ .

فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعاً متساوياً ، وإنَّما يتفاوتون في تدبره والتَّدبر من عمل العقول ، فلمَّا اتَّحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعاً واحداً "[١].

ومن اللَّطيف أن أذكر قولاً آخر في سبب إطلاق المفرد في موضع الجمع ، وهو أنَّ الله سبحانه إذا أفرد وجعل مقابل الإفراد جمعاً ، دل ذلك على فضيلة المفرد ، قال الله تعالى : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ النحل : ٤٨ ، وقال تعالى : ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾الأنعام : ١ ، وقال تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ الأحزاب : ٥٠ ، فأفرد النور وجمع الظلمات ، وأفرد اليمين وجمع الشمائل ، وأفرد العمَّ والخال وجمع العمَّات والخالات ، ليبين فضل النور واليمين والعمِّ والخال مقابل الظلمات والشمائل والعمَّات والخالات ، فالأفضل يُفرد والمفضول يُجمع[٢] .

ولعلَّ **السَّمع** في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا﴾ الأحقاف : ٢٦ ، وفي الآيات التي ورد فيها هو من هذا القبيل ، لأنَّ لفظه تقدم على البصر ، فكان الأفضل فأفرد لبيان هذا الفضل ، فصار فيه فضلان : فضل التقديم ، وفضل الإفراد ، والله اعلم .

قال القُرطبيُّ (ت٦٧١هـ) : " قوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استدلَّ بها من فضَّل السَّمع على البصر لتقدمه عليه "[٣] .

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٥٦/١ .

(٢) انظر سلسلة محاسن التأويل : صالح بن عوّاد المغامسي ، http ://www .islamweb .net

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٨٩/١ .

وضع (أول كافر) موضع (أول كافرين)

قال الله تعالى : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ البقرة : ٤١ ، فأفرد لفظ **كافر** وأراد : **كافرين** .

والنَّكرة المضاف إليها اسم التفضيل إن كانت غير مشتقة من فعل فإنَّها تطابق ما قبلها، وإذا كانت صفة مشتقة كما في الآية جازت المطابقة والأفراد[١] . ففي المطابقة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ التين : ٥ .

وهو مع جوازه قائم على التقدير ، فلا بدّ هنا من تأويل المُفضل عليه وهو : لفظ **كافر** بحمله على المعنى ، أي : معنى الفعل ، قال الفَرَّاء : " ولا تكونوا أول مَن يكفر ، فتُحذف (مَن) ويقوم الفعل مقامها ، فيؤدي الفعلُ عن مثل ما أدت (مَن) عنه من التأنيث والجمع وهو في لفظ التوحيد[٢] ... وقد قال الشَّاعر:

وإذا هُمُ طَعمُوا فَأَلأَمُ طَاعم　　　وإذا هُمُ جَاعوا فشرُ جياع

فجمعه وتوحيده جائز حسن "[٣] . أي : أفرد طاعماً ، وجمع جِياعاً ، وكلاهما جائز .

ومن النحاة مَن يُعلل ذلك بعللٍ لفظيةٍ فيجعل لفظ **كافر** صفة لموصوف يؤدي معنى الجمع ، فيُحذف الموصوف وتقوم الصفة مقامه ، كأنه قال : أوّل فريق ، أو فوج كافر به[٤] .

---

(١) انظر إرتشاف الضرب من لسان العرب : أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) تحقيق وتعليق: مصطفى أحمد النماس ، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م : ج٣/ص٢٢١ .

(٢) يريد : أن لفظ كافر موضوع موضع (من) ولذا فهو يدل على الجمع مع أنه مفرد كما هي دلالة لفظ(من).

(٣) معاني القرآن : ١/٣٢-٣٣ ، وقد وافقه ابن جرير الطبري ، انظر تفسيره : ١/٥٦١ – ٥٦٢ . والبيت لم نعرف قائله ، انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية ، تحقيق : محمد بدر الدين النعساني الحلبي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ : ج٢/ص٦١٦ ، وارتشاف الضرب : ٣/٢٢٣ .

(٤) انظر حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : محمد الخضري (ت ١٢٨٨هـ) وبهامشه شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، راجعته وصححته لجنة علمية مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ-١٩٥٣م : ج٢/ص٥١ .

والزَّمخشريُّ (ت٥٣٨هـ) يحمل الآية على تأويل المُفَضل ، أي : لا يكنْ كلُّ واحد منكم أوّل كافر به[١] .

وذهب القُرطبيُّ [٢] إلى أنَّ ما ورد في الآية يوافق ما حكاه سيبويه عن العرب ، وهو قولهم : " هو أحسنُ الفتيان وأجملُه وأكرم بنيه وأنبلُه "[٣] . فيكون قد وضع (الفتيان) موضع (فتى) ، والتقدير : هو أحسن فتًى وأجمله ، أو أنَّ الضمير المفرد في (أجمله) قائم مقام الجمع وهو (الفتيان) . ومن ينظر في الكتاب يعلم أنَّ الأخفش (ت٢١٥هـ) وسيبويه يريان أنَّه لا يقاس عليه[٤] .

ويبدو أنَّ ما ذهب إليه الفَرَّاء هو الأكثر موافقة لأسلوب القرآن الكريم ؛ ذلك أنَّ اسم الفاعل يُعاقبُ الفعل في الآيات ويُحمل على معناه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام : ١٦٣ ، فإنّه يُحمل على معنى (مَن أسلم) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾الأنعام : ١٤ ، ويشهد له البيت الذي ساقه .

وضع (السحاب المسخر ، موضع المسخرات)

وضع (سحاب مركوم ، موضع مركومات)

قال الله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة : ١٦٤ ، وقال عز وجل : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ الطور : ٤٤ ، فأفرد الصفتين ، وهما : **المسخر ومركوم** ؛ لأنَّ الموصوف وهو **السحاب** ، يُعتبر لفظه مرة فيُفرد الوصف ويذكّر ، ويُعتبر معناه مرة فتأتي الصفة مجموعة كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ الرعد: ١٢ إذ

(١) انظر الكشاف : ١/ ١٦٠ ، وتفسير البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م : ج١/ص٣٣٢ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن : ٣٣٣/١ .

(٣) الكتاب : ٨٠/١ .

(٤) انظر المصدر نفسه .

وُصف السَّحاب **بالثِّقال** وهو جمع تكسير على وزن فِعال جمع لثقيلة ، لأنَّه أراد معنى السَّحاب وهو سحابات[١].

وسُمي السَّحاب سَحاباً لانسِحابه في الجوِّ ، وتسخيرُه : تقليبُه في الجوِّ بواسطة الرياحِ حسبما تقتضيه مشيئةُ الله تعالى[٢] . كما أنَّ وصفه بالمركوم معناه : قد رَكَمَ بعضه فوق بعض أي : تجمع بعضه فوق بعض[٣] .

والسَّحاب اسم جنس جمعيٍّ ، واحده سحابة ؛ لأنَّ اسم الجنس هذا يفرق بينه وبين مفرده بالتاء أو بالياء[٤] وموصوفه يُفرد ويُجمع ، ويُذكر ويُؤنث . قال الزمخشريُّ : " السَّحاب اسم الجنس ، والواحدة سحابة ، والثِّقَال جمع ثقيلة ؛ لأنَّك تقول : سحابة ثقيلة ، وسحاب ثِقال ، كما تقول : امرأة كريمة ونساء كِرام ، وهي الثِقال بالماء "[٥] .

ولو أفرد **الثِّقال** لصحَّ ، قال الطبريُّ : " والسَّحاب في هذا الموضع وإن كان في لفظ واحد فإنَّها جمع ، واحدتها سحابة ، ولذلك قال : الثِّقال ، فنعتها بنعت الجمع ، ولو كان جاء : السَّحاب الثقيل كان جائزاً ، وكان توحيداً للفظ السَّحاب "[٦] .

وكذا وصف النَّخل مرة بمفرد مذكر وهو لفظ **منقعر** في قوله : ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٖ ﴾ القمر : ٢٠ . ووصفه مرة بمفردة مؤنثة وهو لفظ **خاوية** في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴾ الحاقة : ٧ . ولو جمع الصفة على المعنى لصحَّ ذلك لقوله سبحانه : ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾ ق : ١٠ ، والله أعلم .

والسؤال هنا لماذا أفرد المُسخَّر ومَركوم وجمع الثِّقال ؟ .

---

(١) انظر معاني القرآن : أبو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) تحقيق : هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م : ج١/ص١١٢ .

(٢) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) : أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت : ج١/ص١٨٤ .

(٣) انظر لسان العرب : ٢٥١/١٢ .

(٤) أعني بتاء التأنيث ، وياء النسب كشجر وشجرة وعرب وعربي .

(٥) الكشاف : ٤٨٨/٢ .

(٦) جامع البيان : ٤٧٥/١٣ .

والجواب عنه أن يقال : إن السَّحاب لمّا كان اسم جنس فإنَّه يُذكّر ويُؤنث ويُوصف ويُخبر عنه بالجمع ، ولمّا كان في الأمر سعة ، فقد راعى القرآن الكريم الفاصلة في سورتي الطُّور والرَّعد ، فأفرد (مركوم) في الطُّور لأنَّ الأحرف الشَّفوية هي الغالبة في فواصل السُّورة ومنها الميم ، وجمع الثِّقال في الرَّعد أيضاً موافقةً لِرؤوس الآيات قبله وبعده .

وضع (الجُنُب) موضع (أجناب أو جُنُوب أو جُنُبُون)

قال الله تعالى شأنه : ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ المائدة : ٦ . إذ جاء لفظ الجُنُب مفرداً على الرغم من وقوعه خبراً عن جماعة لأنَّه على تخريج الزمخشريِّ لفظٌ يستوي فيه الواحد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، لأنَّه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب ، فلا يُثنى ولا يُجمع ، فيقال : رجل جُنُب ، وامرأة جُنُب ، وهما جُنُب رجال ونساء جُنُب(١). قال ابن دُريدٍ (ت٣٢١هـ) : " هذا أَعلى اللّغات "(٢) . وقال ابن فارس (ت٣٩٥هـ) : "العرب تصف الجميع بصفة الواحد "(٣) . وقال أبو حيان (ت٧٤٥هـ) : " هو المشهور في اللغة والفصيح "(٤) .

وأصل الجنابة : البُعد ، وقيل للذي يجب عليه الغُسل : جُنُب ؛ لأنَّه يجتنب الصلاة والمسجد وقراءة القرآن . ويرى ابن فارس أنَّ للكلمة أصلين متقاربين أحدهما : الناحية ، والآخر البعد(٥) .

---

(١) انظر الكشاف : ٥٤٦/١ .

(٢) جمهرة اللغة : أبو بكر محمد بن الحسن ، ابن دريد (ت ٣٢١هـ) تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧م : ج١/ص٢٧١ .

(٣) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها : أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م : ص١٦٢ .

(٤) البحر المحيط : ٢٦٧/٣ .

(٥) انظر معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين احمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط٢ ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م : ج١/ص٢٤٧ .

ومن العرب من يُثنّيه ويَجمعه جمع سلامة بالواو والنون ، فيقول : جُنُبون ، وجمع تكسير ، فيقول : أجناب وجُنُوب[١] . ولكنَّ جمعه قليلٌ ، قال الطبريُّ : " وليس ذلك بالمُستفيض الفاشي في كلام العرب ، بل الفصيح من كلامهم ما جاء به القرآن "[٢] .

فأما لفظ الجُنُب في قوله سبحانه : ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ النساء : ٣٦ فليس هو ممَّا نحن بصدده حُكماً ؛ لأنَّه صفة للمفرد ونحن نريد الجمع ، ولا هو منه معنى ؛ لأنَّ المعنيَّ به البُعد ، وهل المراد بُعد الدِّيانة أو بُعد المسافة أو بُعد النَّسب على أقوال[٣] .

وكذا قوله : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص : ١١ ومعناه عن بُعد[٤].

والذي يظهر والله تعالى اعلم أنَّ إفراد هذا اللفظ وأمثاله كالضَّيف والصَّديق مع أنّ المراد هو معنى الجمع ، إنَّما هو لقصد التنبيه على الاشتراك في الصِّفة ، وأنَّ كل واحد من الجماعة مشترك في الوصف لا فرق بين أحد منهم ، فلما كان المقصود منه ذلك لم يُجمع اللفظ ، فإذا جُمع لم يُرد منه التنبيه على هذا الاشتراك ، والله أعلم .

وضع (اليمين) موضع (الأَيمان)

قال الله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ النحل : ٤٨ ، يعني : أولم يَرَ الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من جسم قائم ، شجرٍ أو جبلٍ أو غير ذلك ، يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ، أي : يرجع من موضع إلى موضع ، فهو في أوّل النهار على حال ، ثم يتقلّص ، ثم يعود إلى حال

(١) انظر البحر المحيط : ٢٦٧/٣ ، وروح المعاني : ٣٩/٥ .
(٢) جامع البيان : ٢١٣/٨ .
(٣) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية) : أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٥٤١هـ) تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م : ج٢/ص٦١ .
(٤) انظر جامع البيان : ١٧٥/٨ .

أخرى في آخر النهار(١) . وهو كقوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ الرعد : ١٥ .

والسُّؤال هنا لماذا أفرد اليمين وجمع الشمائل ، في حين جاء لفظ اليمين مجموعاً في قوله تعالى : ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ الأعراف : ١٧ ، ووردا (أعني اليمين والشمال) مفردين في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ المعارج : ٣٧ .

وللمفسرين أقوال في عِلَّة إفراد لفظ اليمين وجمع الشمائل :

أحدها : أنَّ اليمين مقصود به الجمع أيضاً ، فإنَّ الألف واللام فيه للجنس ، فقام العموم مقام الجمع ، ولذا قال القرطبيُّ : " ولو قال : عن الأيْمان والشمائل ، واليمين والشمائل ، أو اليمين والشَّمال ، أو الأيمان والشَّمال لجازَ ؛ لأنَّ المعنى للكثرة "(٢) .

وثانيها : أنَّ العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبَّرت عن إحداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾الأنعام : ١ ، وقوله : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾البقرة :٧ ولو قال على (أسماعهم) وإلى (الأنوار) لجاز(٣). وسمَّاه الواحديُّ (ت٤٦٨هـ) ايجازاً واختصاراً(٤).

وثالثها : أن يكون رَدَّ اليمين على لفظ "ما" ، والشَّمال على معناها . قال القرطبيُّ : "ومثل هذا في الكلام كثير"(٥) .

---

(١) انظر المصدر نفسه : ٢١٦/١٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١١٢/١٠ ، وانظر مفاتيح الغيب : ٢١٥/٢٠ .

(٣) انظر مفاتيح الغيب : ٢١٥/٢٠ ، والجامع لأحكام القرآن : ١١٢/١٠ .

(٤) انظر الوسيط في تفسير القرآن المجيد : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت٤٦٨هـ) تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، وآخرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م ، ج١/ص٨٥ ، ج٣/ص٦٥ .

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن : ١١٢/١٠ ، وزاد المسير في علم التفسير : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، ج٢/ص٥٦٣ .

وآخرها : أنَّ اليمين يُجمع على أيْمن وأَيمان فهو من أبنية جمع القِلَّة غالباً ، والشَّمال يُجمع على شمائل وهو جمع كثرة ، والمَوطن مَوطن تكثيرٍ ومبالغةٍ فعدل عن جمع اليمين إلى الألف واللام الدالة على قصد التكثير(١) .

وهذا الأخير غير دقيق فأبنية القِلَّة قد وردت في آيات كثيرة والموطن موطن تكثير ، ذلك أنَّ الجزم بدلالة هذه الابنية على القلَّة دائما غير واقع ، فيجوز ايقاع القِلَّة موضع الكثرة والعكس بالعكس ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ الزخرف:٧١ فجاء بأنفس وأعين ، ولم يقل : نفوساً أو عيوناً .

فإن قيل : ألا يتعارض هذا وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ الأعراف : ١٧ ، فجمع اليمين على أيمان وأفعال من أبنية القِلَّة ؟.

قلت لا يتعارض لأنَّ إضافة أيمان إلى ضمير الجماعة (هم) دلَّت على الكثرة وهو كقول حسَّان رضي الله عنه(٢) :

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضّحى وأسيافُنا يقطرنَ من نجدةٍ دَمَا

وذهب الفَرَّاء إلى أنَّ سبب الإفراد : " أنَّ أكثر الكلام يُواجه به الواحد ، فيقال : خُذْ عن يمينك وعن شمالك ، لأنَّ المكَّلم واحد والمُتكلِّم كذلك ، فكأنَّه إذا وحَّد ذهب إلى واحد من القوم ، وإذا جمع فهو الذي لا مسألة فيه "(٣) . واستشهد على ذلك بقول الفرزدق(٤) :

بِفِي الشَّامِتِينَ الصَّخرُ إن كان هدني رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخْدِرٍ في الضَّراغِم

ولم يقل : بأفواه الشَّامِتين .

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن : ١٣/٤ .

(٢) انظر ديوان حسان بن ثابت (رضي الله عنه) شرح : عبد مهنّا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م : ص٢١٩ .

(٣) معاني القرآن : ١٠٢/٢ ، وانظر جامع البيان : ٢١٩/١٧ .

(٤) انظر ديوان الفرزدق (همام بن غالب) ، شرح علي حسن فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م : ص٥٣٤ ، والمخدر : الأسد ، وفي الديوان : مسَّني مكان هدني .

وبقول جرير [1] :

الــــوارِدُونَ وتَـــــيْمٌ فــــي ذَرا سَـــــبَأٍ قَــــد عَـــضَّ أعنـــاقَهُم جِلـــدُ

ولم يقل : جلود .

وما رواه الفَرّاء هنا لا يصحُّ الاستشهاد به ؛ لأنَّ الشَّاهد في البيتين من قبيل المضاف والمضاف إليه ، وفيه أوجه هذا أحدها ، وهو أن يُفرد المضاف ، ويجوز أن يجمع ، وليس اليمين في الآية من هذا القبيل لأنَّه مفرد غير مضاف أصلاً .

وذهب آخرون إلى أنَّ إفراد اللفظ وجمعه دائر بين الشَّرف والنَّقص فإذا افرد اللفظ دلَّ ذلك على أنَّه الأشرف ، وإذا جُمع دلَّ على النَّقص كما في الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ الأنعام : ١ ، ومثله قوله عزَّ شأنه : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ الأحزاب : ٥٠ ، فأفرد الذَكَر وجمع الأنثى دلالة على شرفه ونقصها[2]. ومنه قوله عز وجل : ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الأنعام: ١٥٣ ، قال الزَّركشيُّ : " ولذلك جُمع سبيل الباطل وأُفرد سبيل الحق ... ولهذا وحَّد الوَليَّ فقال : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ البقرة : ٢٥٧ ، لأنَّه الواحد الأحد ، وجمع أولياء الكُفَّار لتعددهم ، وجمع (الظلمات) وهي طُرُق الضلال والغَيِّ لكثرتها واختلافها ، ووحَّد (النُّور) وهو دِين الحق "[3] .

---

(١) انظر ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق : نعمان محمد أمين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ص١٣٠ ، وهو في الديوان : تدعوك تيم وتيم في قرى سبأ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) : عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت٣٢٧هـ) تحقيق : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى ، السعودية ، ط٣ ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م : ج١٢/ص٣٦٥ ، وتفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ : ج٦/ص٤٤٢ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ٤/١٢ .

وذهب الزَّركشيُّ أيضاً في ذكر عِلَّة إفراد اليمين إلى القول : " إنَّه لمّا كانت اليمين جهة الخير والصَّلاح وأهلها هم النَّاجون أُفردت ، ولمَّا كانت الشَّمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشَّمال جُمعت "(١) .

وفي إفراد اليمين أقوال أخرى لا تقوم عند النَّظر فيها ، منها أنَّ الشَّمائل إنَّما جُمعت مجاورةً لقوله : (سُجَّداً) فجاور الجمع الجمع ، فالعلَّة على هذا تركيبية .

ومنها ما نقله الزَّركشيُّ عن ابن بابْشاذ : أنَّ اليمين (فعيل) وهو مخصوص بالمبالغة فَسَّدت مبالغته جمعه(٢) ، لأنَّنا نعلم أنَّ اليمين هنا ليست للمبالغة .

وأرى أنَّ اليمين والشمائل متعلق بقوله : ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ الرعد : ١٥ ، فلما أفرد الغدوَّ أفرد اليمين ، ولمَّا جمع الآصال جمع الشمائل . فدل لفظ اليمين على ظلِّ الغداة ، وهو ما يكون بعد الفجر إلى طلوع الشَّمس ، فهو ظلٌّ واحدٌ متصل ولذا وحَّده القرآن ، وأما الشمائل فهي الظِّلال التي تكون بالآصال ولذا جمعها كما جمع الآصال ، والله أعلى وأعلم .

ويعجبني قريباً من هذا قول الآلوسيّ : " وهو أنَّه لمَّا كانت الجهة الأولى مَطلع النور والجهة الثانية مغربه ومظهر الظلمة ، أفرد ما يدلُّ على الجهة الأولى ، كما أفرد النُّور في كل القرآن ، وجمع ما يدلُّ على الجهة الثانية كما جمع الظلمة "(٣).

وضع (الضيف) موضع (الأضياف أو الضيوف أو الضيفان)

الضيفُ مصدر ضِفْتُ الرجُلَ أضِيفُه ضَيْفاً. ولذا يجيء مفرداً مذكراً ، وإن وُصف به الجمع ، يقال : هذا ضيفٌ ، وهذه ضيفٌ ، وهذان ضيفٌ ، وهاتان ضيفٌ ، وهؤلاء ضيفٌ ، وإنما أُفرد لأنَّه مصدر ، وإنما أُفرد المصدر ؛ لأنَّه يدلُّ على صنف واحد ، فإذا تنوعت الأجناس جُمع ، فقالوا : أضياف وضيفان(٤). وأصل معنى الضَّيف : ميل الشَّيء

---

(١) المصدر نفسه : ١٢/٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢/٤ .

(٣) روح المعاني : ٣٩٤/٧ .

(٤) انظر معاني القرآن وإعرابه : أبو إسحاق إبراهيم السري الزجاج (ت ٣١١هـ) عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م : ج٣/ص١٨٢ .

إلى الشَّيء ، قال ابن فارس : " أضفت الشَّيء إلى الشَّيء : أملته ، وضَافَت الشمسُ تَضِيفُ ، وكذلك تضيّفتْ إذا مالت إلى للغروب ... والضَّيف من هذا ، يقال : ضِفت الرجلَ ، تعرَّضتُ له ليَضِيفني ، وأضفته : أنزلته عليَّ "(١) .

وكلمة الضَّيف وردت في خمسة مواضع من القرآن الكريم ، ففي الإخبار عن ضيف إبراهيم عليه السلام جاء قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الحجر : ٥١ ، ثم أعاد الضمير مجموعاً فقال : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ الحجر : ٥٢ . ومثلها قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ الذاريات : ٢٤ . فجاء بالصفة مجموعة .

وقد دفع هذا التَّغاير بين المفرد (الموصوف ، الضَّيف) والجمع (الصِّفة ، المُكرمين) دفع مكيّ ابن أبي طالب إلى تقدير مضاف محذوف فقال : " عن (ذوي) ضيف إبراهيم ، وعن (أصحاب) ضيف إبراهيم ، ثم حذف المضاف "(٢) .

كما ألجأ ما ظاهره التنافي ابنَ منظور (ت٧١١هـ) إلى القول بأن الضَّيف في هذه الآيات جمع وليس بمفرد ، فقال : " إنّ ضيفاً قد يجوز أَن يكون هاهنا جمع ضائف الذي هو النازل ، فيكون من باب زَوْرٍ وصَوْمٍ ، فافهم "(٣) .

ولا حاجة لقول ذلك لأنَّ الموصوف إن كان مصدراً يُعتبر معناه كما يُعتبر لفظه ، فتجمع الصفة بناءً على المعنى .

وضع (طفلاً) موضع (أطفالاً)

قال الله عزَّ وجلّ : ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ الحج : ٥ وقال : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ غافر: ٦٧ ، فأفرد طفلاً ولم يقل : أطفالاً كما ورد في قوله

(١) معجم مقاييس اللغة : ٥٧/١ .

(٢) مشكل إعراب القرآن : أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) تحقيق : الدكتور حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ : ج١/ص٤١٦ .

(٣) لسان العرب : ٢٦٢٦/٤ .

عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾النور : ٥٩ .

والسُّؤال هنا أن يقالَ : ما وجه الإفراد في تَينِ الآيتين ؟.

والجواب هو : إنَّما أفرد **طفلاً** لأنَّه اسم جنس يدلُّ على القليل والكثير ، ومعلوم أنّ اسم الجنس بمعنى الجمع ، فهو شامل للواحد والمتعدد . قال الزَّجّاج : " **طفلاً** في معنى أطفالاً ، ودل عليه ذكر الجماعة "(١) . يريد في (نخرجكم) . قال ابن مَنظور : " فإنَّه أراد بالطِّفل الجنس الذي يدخل تحته جميع الأطفال "(٢) .

فإن من أساليب العرب أنَّ المفرد إذا كان اسم جنس أن يُطلق مراداً به الجمع مع تنكيره – كما في **طفلاً** – وتعريفه بالألف واللام كما في قوله تعالى : ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾النور: ٣١ ، والذي حسَّن إطلاق المفرد (**طفلاً** ، **الطفل**) في الآيتين السابقتين؛ ذكر ما يدل على إرادة الجمع ، وهو قوله : (نخرجكم – يخرجكم)(٣) ، وأما قوله : (أو الطفل) فبقوله (الذين) ، فاستغني بها عن قوله : (أطفالاً) .

وذكر ابن جني عِلَّة معنوية فقال : " وحَسَّن لفظ الواحد هنا شيءٌ آخر أيضاً ، وذلك أنَّه موضعُ إضعافٍ للعبادِ وإقلالٍ لهم ، فكان لفظ الواحد لقلَّته أشبهَ بالموضع من لفظ الجماعة؛ لأنَّ الجماعة على كل حالٍ أقوى من الواحد "(٤) .

وعِلَّة إفراده هنا مع كون المعنى يتم بذكر جمع التكسير (أطفالاً) ، الإشارة إلى أنَّه سبحانه يخرج كل واحد منكم طفلاً . فالمعنى إمَّا لإرادة الجنس أو لإرادةِ كلّ واحدٍ من أفراده(٥) .

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج : ٤١٢/٣ .

(٢) لسان العرب : ٣٠٦/١ .

(٣) انظر زاد المسير : ٢٢٤/٣ .

(٤) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م : ج١/ص٢٠٢ .

(٥) انظر إرشاد العقل السليم : ٢٨٣/٧ .

وهذه قضية شغلت أهل اللغة قديماً وحديثاً ، وهي تقوم على السؤال التالي : هل اسم الجنس المحلى بأل الجنسية أعمُّ من جمع التكسير المحلى بها[(١)] ؟ .

وذكر ابن جرير الطبريّ العِلَّة اللفظية التي يلجأ إليها أهل اللغة عند ذكر عِلَّة إفراد اللفظ في موضع الجمع ، وهي كون الكلمة (**طفلاً**) مصدراً يستوي فيه الواحد والمثنى والجمع[(٢)] .

ولا يخفى عدم اتجاه هذا القول ، لأنَّ الطِّفل اسم جنس وليس بمصدر ، يدلُّ على ذلك أنَّه يفرق بينه وبين الواحد بتاء التأنيث (طفلة) ، وأنَّه لا فعل له أصلاً .

واعترض المُبرِّد على حمل المفرد على معنى الجمع في الكلام إذا لم يكن مصدراً إلا في ضرورة الشعر واشترط وجود دليل يصرف المفرد إلى الجمع ، وفسَّر **طفلاً** في الآية بأنَّها أُخرجت مخرج التَّمييز ، والتَّمييز يأتي مفرداً نكرة كما نقول : زيد أحسنُ الناس ثوباً[(٣)] .

وهذا تكلُّف بناه على مذهب سيبويه في هذه المسألة ، والصواب جوازه في الكلام كما أشرت إليه أول البحث لكثرة ما يخالفه في كلام العرب فضلاً عن القرآن المجيد ، وقد جعله ابن جني من باب الاتساع في اللغة[(٤)] . وقال ابن فارس : "ومن سُنن العرب ذكر الواحد والمراد الجميع ، كقولهم للجماعة ضيف وعدوٌّ ، قال الله جل ثناؤه : ﴿ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ الحجر : ٦٨ ، وقال : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ غافر : ٦٧ "[(٥)] .

كما أنَّ الأقرب في **طفلاً** أن يكون حالاً من الضمير في (نخرجكم) لا تمييزاً له ، أي : يخرجكم الله تعالى حال كونكم أطفالاً[(٦)] .

---

(١) انظر في الخلاف القائم في هذه المسألة تفسير الكشاف : ٣٥٨/١ ، والبحر المحيط : ٣١٨/٨ .

(٢) انظر جامع البيان : ٥٦٩/١٨ .

(٣) انظر المقتضب : ١٧١/٢ -١٧٤ .

(٤) انظر المحتسب : ٢٦٧/٢ .

(٥) الصاحبي : ١٦١ .

(٦) انظر التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت٦١٦هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه : ج٢/ص٩٣٣ ، واللباب في علوم الكتاب : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي (ت ٧٧٥هـ) تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م : ج١٤/ص٢١

وضع (سامراً) موضع (سُمّاراً أو سُمّراً أو سامرين)

قال الله عز وجل : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ المؤمنون : ٦٧ ، اختلف في مرجع الضمير في (بـه) أهو للحَرَمِ لاشتهارِهم بالاستكبار بـهِ ، أو للقرآن الكريم ، أو للاستماعِ إليه ، أو تتعلق الباء بسامراً ، أي : تَسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون . وكانت عامة سَمَرِهم تسمية القرآن سحراً وشعراً وسبّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[١] .

والسَّامِر : اسم لجماعة المتحدثين في الليل خاصة[٢] .

وهو أيضاً : مجلس السّمّار[٣] .

والسَّمر أيضاً الليل المظلم ومنه السُّمْرة ، قال ابن فارس : " السين والميم والراء أصل واحد يدلُّ على خلاف البياض في اللون ، من ذلك السُّمرة من الألوان ، وأصله قولهم : لا آتيك السَّمَر والقَمَر ، فالقمر : القمر ، والسَّمر : سواد الليل ، ومن ذلك سميت السُّمرة "[٤] .

وسامراً بمعنى سُمّاراً أو سُمّراً وضع المفرد موضع الجمع ، لأنَّه اسم جمع كما ترى ، قال الأزهريُّ (ت٣٧٠هـ) : " وقد جاءت حروف على لفظ فاعِل وهي جمعٌ عن العرب ، فمنها الجامِلُ والسَّامِر والباقِر والحاضِرُ ، فالجامل : الإبل فيها الذكور والإناث ، والسَّامِر : جماعة الحي يسمرون ليلا ، والحاضِر : الحيّ النزول على الماء ، والباقِر : البقر فيها الفحول والإناث"[٥] .

(١) انظر الكشاف : ٣/١٩٦ .

(٢) انظر المحكم والمحيط الأعظم : ٨/٤٩١ .

(٣) انظر تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ) تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م : ج١٢/ص٢٩١ .

(٤) معجم مقاييس اللغة : ١/٥٧٠ .

(٥) تهذيب اللغة : ١٢/٢٩١ .

واختلف في سبب إفراد سامراً ومعناه في الآية ، فقالوا : أفرد سامراً وأراد سُمّاراً لأَنَّه وُضع موضع ظرف الزمان ، فوضع السَّامر موضع الليل ، فيكون المعنى وتهجرون ليلاً ، فأفرد لذلك ، وهذا ما ذهب إليه ابن جرير الطبريّ(١).

وهنا أسأل لو أراد الله تعالى الليل لقال : مستكبرين به ليلاً تهجرون ، ومعلوم أنَّ السَّمر لا يكون إلا ليلاً ، قال الأزهري : " السَّامرُ : الجماعةُ يتحدّثون ليلًا . والسَّمَرُ : ظلّ القمر "(٢). فلا فائدة من ذكر الليل ، لأَنَّه سيشبه قولنا : عندي صداع في رأسي .

وقيل : (سامراً) مصدر وقع حالاً فهو يشمل القليل والكثير باعتبار أصله ، قال الآلوسيُّ: " ولا يخفى أَنَّ مجيء المصدر على وزن فاعل نادر ، ومنه : العافية والعاقبة "(٣) .

وذهب آخرون إلى أَنَّ سامراً منصوب بـ(يهجرون) وعلى نزع الخافض ، والتقدير : وتهجرون في السَّمر . قال الطاهر ابن عاشور : " وعندي أنه يجوز أن يكون سامراً مراداً منه مجلس السَّمر حيث يجتمعون للحديث ليلاً ويكون نصبه على نزع الخافض ، أي في سامركم ، كما قال تعالى : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾العنكبوت : ٢٩ "(٤) .

وإنّي لأميل إلى أن يكون (سامراً) لفظاً مفرداً وضع موضع الجمع ويدل عليه قراءة أُبيّ بن كعب ، وأبو العالية ، وابن محيصن ، وابن عباس : (سُمَّراً) جمع سامر ، وقراءة ابن مسعود، وأبو رجاء ، وعاصم : (سُمَّاراً)(٥) .

---

(١) انظر جامع البيان : ٥٣/١٩ .

(٢) تهذيب اللغة : ٢٩١/١٢ .

(٣) روح المعاني : ٢٥٠/٩ .

(٤) التحرير والتنوير : ٨٦/١٨ .

(٥) انظر المحتسب : ٩٦/٢ ، والكشاف : ١٩٦/٣ .

وضع (إمام) موضع (أئمة)

ورد لفظ الإمام في القرآن العظيم على خمسة وجوه هي[١] :

١- القائد وذلك في قوله تعالى : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفرقان : ٧٤ ، أي : قادة .

٢- كتاب أعمال بني آدم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ الإسراء :٧١

٣- اللوح المحفوظ ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ يس : ١٢.

٤- التوراة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾هود : ١٧ .

٥- الطريق الواضح ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ الحجر : ٧٩ .

إن اختيار لفظة (إمام) في قوله تعالى : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفرقان : ٧٤ ، من دون لفظ (أئمة) كما قال : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ الأنبياء : ٧٣ ، جاء لغاية مقصودة ، فما هي هذه الغاية ؟ .

هنا نقول : إن لفظ إمام يكون مقصوداً لذاته لأنَّه يعطي معنيين كلاهما مراد :

الأول : أن يكون لفظ إمام مفرداً ، وضع موضع أئمة ، والمعنى : واجعلنا أئمة لمن بعدنا من المتقين . قال ابن جرير الطبريّ : "الإمام مصدر من قول القائل : أمّ فلان فلاناً إماماً، كما يقال : قام فلان قياماً وصام يوم كذا صياماً . ومن جمع الإمام أئمة ، جعل الإمام اسماً"[٢].

فإن قيل : لِمَ لم يقل : أئمة إذاً ؟. قلنا لرعاية الفاصلة ، والمحاذاة الصوتية ، فهما لم يزالا مرعيين موافقةً لرؤوس الآي . أو لقصد التوزيع لأنَّ المقصود أن يكون كل واحد منهم إماماً كما يقول ابن عاشور[٣] . ومن قبله الزمخشريّ إذ قال : " أراد : أئمة ، فاكتفى

(١) انظر الوجوه والنظائر في القرآن الكريم : مقاتل بن سليمان البلخي (ت١٥٠هـ) ، تحقيق : حاتم صالح الضامن ، مركز جمعة الماجد ، دبي ، ط١ ، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م : ص٤٦-٤٧ .

(٢) جامع البيان : ٣٢٠/١٩ .

(٣) انظر التحرير والتنوير : ٨٣/١٩ .

بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس ، كقوله تعالى :﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ غافر: ٦٧ ، أو أرادوا اجعل كل واحد منا إماماً ... أو أرادوا اجعلنا إماماً واحداً لاتحادنا ، واتفاق كلمتنا"[١] . ويشهد لهذا قراءة ابن كثير وأبي عمرو (سَقْفاً) على وجه الإفراد في قوله تعالى : ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ الزخرف : ٣٣ ، أي : لجعلنا لبيت كل وَاحِد سقفاً من فضَّة[٢] .

والآخر : أن يكون (إمام) جمع تكسير مفرده : آمّ ، بمعنى : مُتَّبِع ، مثل : صاحب وصِحاب ، قال ابن مالك : " ويحفظ (فِعال) أيضًا في جمع (فاعل وفاعلة) –وَصْفَين– نحو : قائم وقيام ، وراعٍ ورعاء ، وآمّ وإمام "[٣] . فيكون المعنى : واجعلنا للمتقين من القاصدين المتبِعين ، واجعل المتقين لنا إماماً نأتمّ بهم ، فهو من المقلوب كما قال أبو إسحاق الثعلبي[٤] فيكون قد توافق المفرد والجمع في الهيئة والبنية .

والنتيجة واحدة فمن يأتم بالمتقين يَتبعهم ، يكنْ لمن بعده إماماً ، والله أعلم . ويدل على ذلك قول الزَّجّاج : " واجْعلنا ممن يَهتَدِي به المتقُون ، وَيهْتدِي بِالمتَقِينَ "[٥] .

وهذا لا يتحقق لو جيء بكلمة (أئمة) إذ يصير المعنى : واجعلنا أئمة لمن بعدنا من المتقين. ويفوت المعنى الأول ، وهو اجعلنا للمتقين من القاصدين المتبعين .

---

(١) الكشاف : ٣٠٢/٣ .

(٢) انظر كتاب السبعة في القراءات : أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي تحقيق: الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ : ص٥٨٥ ، والمحكم والمحيط الأعظم : ٢٤٠/٦ .

(٣) شرح الكافية الشافية : أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ) تحقيق : علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م : ج٢/ص٢٧٠ ، وانظر شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو : خالد بن عبد الله الأزهري (ت ٩٠٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م : ج٢/ص٥٣٨

(٤) انظر الكشف والبيان عن تفسير القرآن : أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت٤٢٧هـ) ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق : نظير الساعدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م : ج٧/ص١٥٢ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه : ٧٨/٤ .

وضع (الدُّبُر) موضع (الأَدبار)

الدُّبُرُ والدُّبْرُ نقيض القُبُل ، ودُبُرُ كل شيء عَقِبُه ومُؤخَّرُه وجمعهما أَدْبارٌ(١). قال الله تعالى : ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ القمر : ٤٥ . فأفرد الدُّبُر ولم يقل الأدبار ، والكلام على الجماعة ، ولم يجمعه كما في قوله : ﴿إِلَّا يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ آل عمران : ١١١ ، وفي قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ ق : ٤٠ ، أي : أواخر الصلوات .

وعِلَّة إفراده أنَّه اسم جنس فهو يدلُّ على الجمع ، قال الفَرَّاء : " كلّ جائز ، صواب أن تَقُول : ضربْنا منهم الرؤوس والأعين ، وضربنا منهم الرأس واليد ، وهو كما تَقُول : إنه لكثير الدينار والدرهم ، تريد الدنانير والدراهم "(٢) .

يريد أَنَّ اسم الجنس يجوز أن يطلق لفظه مفرداً ومجموعاً ، لكن لا يتصور أن يكون الإفراد والجمع بمعنى واحد ، وما تعددت الصيغ إلا لتنوع المعاني . فالمُتَصوّر في هذا الموضع من القرآن أن يجمع لفظ الدبر ؛ لأن الكلام على الجماعة ، ولأن الضمير ينوب مناب تَكْرار العاطف فكأنه قيل : تولى هذا وهذا وهذا ، وما عدل القرآن عنه إلا لغاية يريدها .

وخير ما قيل في هذا ما ساقه الفخر الرازيُّ (ت ٦٠٦هـ) من المعاني المتحققة في إفراد كلمة الدُّبر وفي جمعها فقال : " فقوله : ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ إفراده إشارة إلى أنَّهم في التَّولية كنفس واحدة ، فلا يتخلف أحد عن الجمع ، ولا يثبت أحد للزَّحف ، فهم كانوا في التَّولية كدبرٍ واحدٍ ، وأما في قوله : ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ الأنفال : ١٥ ، أي كل واحد يُوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره ، فليس المَنهيُّ هناك توليتهم بأجمعهم ، بل المَنهيُّ أن يولي واحد منهم دبره ، فكل أحد منهيٌّ عن تولية دبره ، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ، ثم جمع الفعل بقوله : (فلا تولوهم) ولا يتمّ إلا بقوله : (الأدبار)"(٣) . وهنا يقول ابن عاشور : "إنَّ انهزام الجمع انهزامة واحدة ولذلك الجيش جهة تول واحدة . وهذا

(١) انظر لسان العرب : ١٣١٧/٢ .
(٢) معاني القرآن : ١١٠/٣ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن : ١٤٥/١٧ .
(٣) مفاتيح الغيب : ٣٢٢/٢٩ .

الهَزْم وقع يوم بدر"[1]. إذاً لم يُوضع المفرد في هذا الموضع لأجل الفاصلة فحسب كما قال البَغويّ والسَّمرقنديّ وأبو حيان وغيرهم إن الدُّبر إنَّما أفرد هنا لموافقة رؤوس الآيات[2].

وفي إفراد (الدبر) زيادة بشارة للمؤمنين ، مفادها أَنَّ الكفار مهزومون لا محالة ، وهم في انهزامهم سيولون جميعاً دبرهم ، لا يثبت منهم أحد ، وهذا لا يتحقق لو قال (الأدبار) لأن معناه حينئذ أنه ربما ثبت بعضهم ، والله أعلم .

وضع (نهر) موضع (أنهار)

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ القمر: ٥٤ ، فجمع (جنات) وأفرد (نهر) وفي (نَهَر) قراءات :

أولها : وهي قراءة حفص عن عاصم (ونَهَر) وهي الأفصح ، قال ابن دريد : " والنَّهَر – بفتح الهاء– اللّغة الفصيحة العالية "[3] . والمراد : في أنهار[4] .

وكان القياس يقتضي أن يقول : (أنهار) لقوله : (جنَّات) ، مماثلة لما ورد في القرآن كثيراً من قوله : ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾البقرة : ٢٥ ، إذ جاء لفظ الأنهار في (٥١) موضعاً من الكتاب الكريم ، اقترن فيها بلفظ الجنات في (٣٣) آية ، في حين جاء لفظ (نهر) مفرداً في موضعين غير هذا الموضع هما قوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ البقرة : ٢٤٩ ، وقوله : ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ الكهف : ٣٣ .

فما العلَّة التي اقتضت إفراده في هذا الموضع ؟ في حين أَنَّ القرآن حيثما جمع الجنّات جمع الأنهار إلَّا في هذه الآية .

---

(١) التحرير والتنوير : ٢١٣/٢٧ .

(٢) انظر معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) : أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ) تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ : ج٤/ص٣٢٧ ، وبحر العلوم (تفسير السمرقندي) : أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي ، تحقيق : الدكتور محمود مطرجي ، دار الفكر ، بيروت : ج٣/ص٣٧٦ ، والبحر المحيط : ٤٧/١٠ .

(٣) جمهرة اللغة : ٨٠٧/٢ .

(٤) انظر معاني القرآن للفراء : ١١١/٣ ، ومعالم التنزيل : ٣٣٠/٤ .

فالجواب عليه : أَنَّ لفظ (نَهَر) جمع أمرين لا يتحققان لو جُيء بلفظ أنهار ، وهما :

الأول : أَنَّ (نَهَر) يدلُّ على الجمع ؛ لأَنَّه اسم جنس[١] ، والمراد أنهار الجنَّة وهي : ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ محمد : ١٥

ويدلُّ على أَنَّ المراد من لفظ (نهر) الجمع قوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الحجر: ٤٥ ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ المرسلات : ٤١ ، فاقترن لفظ جنَّات وظلال بعيون ، والقرآن يفسّر بعضه بعضاً .

ويدلُّ على ذلك أيضاً أَنَّ القرآن عكس ما ورد في سورة القمر بما ورد في سورة الرعد ، والشيء بالشَّيء يُعرف ، فأفرد الجنَّات وجمع الأنهار في قوله عز وجل : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾الرعد : ٣٥ ، والجنَّة هنا اسم جنس ، أي : الجنَّات ، فالمراد اذاً من **نَهَر** الأنهار ؛ لأَنَّه اسم جنس أيضاً .

ونقل الفَرَّاء عن الكِسائيّ (ت١٨٩هـ) أنَّه سمع العرب يقولون : "أتينا فلاناً فكنا في لحمةٍ ونبيذةٍ ، فوحّد ومعناه الكثير"[٢] .

وذهب الرازيُّ إلى أَنَّ **نَهَر** في آية القمر مفرد لفظاً ومعنى وأَنَّ القرآن جمع الجنَّات إشارة إلى سعتها وتنوعها ، وأفرد **نَهَر** ؛ لأَنَّ المعنى في جنَّات عند **نَهَر** ، وجمع **نَهَر** في قوله : ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾البقرة : ٢٥ ، لئلا يُتوهم أنَّه ليس في الجنَّة إلاّ نهر واحد . والتَّنكير في **نَهَر** للتعظيم[٣] .

والأمر الآخر الذي لأجله جيء بنهر ، أنه يوافق رؤوس الآي[٤] ، فأنت ترى أَنَّ سورة القمر ذات فاصلة تنتهي براء قبلها متحركان ، فلا يصلح هنا قول : وأنهار ، في حين يحقق **نَهَر** المطلبَين في كلمة واحدة وهما توافق الفواصل ، والدلالة على الجمع .

(١) انظر مفاتيح الغيب : ٣٣١/٢٩ ، واللباب في علوم الكتاب : ٢٨٦/١٨ .

(٢) معاني القرآن : ١١١/٣ .

(٣) انظر مفاتيح الغيب : ٣٣٢/٢٩ .

(٤) انظر بحر العلوم : ٣٧٦/٣ ، ومعالم التنزيل : ٣٣٠/٤ .

ومن معاني **نَهَر** السِّعة والضّياء من النَّهار[1] ، قال الفَرَّاء : " ويقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ في ضياء وسعة "[2] . وهو يوافق اللغة ، قال ابن دريد : " وأصل النَّهر : السَّعَة والفُسحة"[3] . ومما يقوي هذا القول أَنَّ الجنَّات ظرف مكان ، و **نَهَر** بمعنى النَّهار ظرف زمان، فكأنه ذكر مقام المتقين وزمانهم[4] . كما يوافق المعنى المطلوب لأن المراد ذكر مقام المتقين وأنهم في سعة في المَنزل والرِّزق والضِّياء ، قال أبو حيان الأندلسي : " و**نَهَر** : وسعَة في الأرْزاق والمَنازل"[5] . وقال الدكتور فاضل السامرائي : " وهذه المعاني كلها مُرادةٌ مطلوبة، فإنَّ المتقين في جنَّات وأنهارٍ كثيرة جارية ، وفي سعة من العيش والرِّزق والسَّكن وعموم ما يقتضي السَّعة ، وفي ضياء ونورٍ يتلألأُ ليس عندهم ليلٌ ولا ظلمةٌ "[6] وهو من التَّوسع في المعنى ، لأَنَّه لا قرينة تصرف اللفظ إلى معنى دون آخر . وقرئ (نُهْر)[7] جمع **نَهَر** ، مثل أُسْد وأَسَد . والجمع مناسب للجمع قبله في جَنَّات . لكنه مخالف لفواصل السورة . ويُفهَم من هذه القراءة أَنَّ (نَهَر) لم تركَّب في هذه الآية لأجل الفاصلة فحسب .

(١) انظر الكشاف : ٤٤١/٤ .
(٢) معاني القرآن للفراء : ١١١/٣ .
(٣) جمهرة اللغة : ٨٠٧/٢ .
(٤) انظر مفاتيح الغيب : ٣٣٢/٢٩ .
(٥) البحر المحيط : ٤٩/١٠ .
(٦) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ، عمَّان ، ط٤ ، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م : ص١٧١ .
(٧) انظر الكشاف : ٤٤١/٤ ، والبحر المحيط : ٤٩/١٠ ، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، دار الفكر ، بيروت : ج٥/ص١٥٦ .

وقرئ (نُهُر)[١] وهي تحتمل وجوهاً بناء على أَنَّ المفرد **نَهَر** نحو : أُسُد وأَسَدٍ ، أو نَهْر نحو : سُقُف وسَقْفٍ، ورُهُن ورَهْن ، أو نَهار مثل سَحاب وسُحُب ، وفي هذا الخير قال ابن عطية (ت ٥٤١هـ) : " وهذا سائغ في اللفظ قلق في المعنى "[٢] . قال أبو حيان الأندلسي : "وهو بعيد "[٣].

فكلمة **نَهَر** على قراءة الجمهور لفظ مفرد ، بمعان متنوعة كلها مقصودة . وقراءة الباقين على أَنَّ نَهَر جمع بصيغ مختلفة ، لآحاد متنوعة ، والقراءة الأولى أولى للاعتبارين الذين ذكرناهما فضلاً عن المعاني المتنوعة فيها . تليها قراءة من قرأ (نُهُر) جمعا لموافقتها الكلمات التي تماثلها في السورة وهي : دُسُر جمع دِسَار وهو المسمار ، نُذُر جمع نذير ، سُعُر جمع سعير ، والله أعلم .

وضع (القصر) موضع (القصور)

قال الله تعالى : ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ المرسلات : ٣٢ ، أي : جهنم ترمي بشرر الواحدة كالقصر .

والشَرَر : ما تطاير من النار ، وهي القطعة المشتعلة من دقيق الحطب يدفعها لهب النار في الهواء[٤] . وهي أيضاً جمعٌ مفردها : شَرَرَة ، قال القرطبي : " الشَّرَر : واحدته شَرَرة . والشَّرار : واحدته شَرارة "[٥] .

وهذه الآية عكس قوله تعالى : ﴿مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هود : ٤٢ ، فالموج –وهو المشبه– اسم جنس ؛ مفرده موجة ، والمشبه به جمع تكسير وهو الجبال . وفي هذه الآية المُشبَّه جمع تكسير وهو شَرَر ، والمُشبَّه به اسم جنس وهو القصر .

---

(١) انظر المحتسب : ٣٠٠/٢ ، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر : شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطي تحقيق : أنس مهرة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط٣ ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م : ص٥٢٥ ، والكشف والبيان : ١٧٤/٩ ، والجامع لأحكام القرآن : ١٥٠/١٧ ، والبحر المحيط : ٤٩/١٠ ، وفتح القدير : ١٥٦/٥ .

(٢) المحرر الوجيز : ٢٠٣/٥ .

(٣) البحر المحيط : ٤٩/١٠ .

(٤) انظر التحرير والتنوير : ٤٣٧/٢٩ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن : ١٦٣/١٩ .

والقَصْر له معنيان[1] :

الأول : القَصْر واحد القصور ، ومعناه البناء العظيم ، والتشبيه به لعظمه .

والآخر : القَصْر جمع القصْرة ، مثل تَمْر وتَمْرة ، والمقصود به الغليظ من الشجر .

فلفظ القصر على الأول مفرد شُبه به جمع ، أي : كل شررة كقصر ، وهذا تشبيه في عظم حجمه .

وعلى الثاني هو جمعٌ شُبِّه به جمعٌ ، فيحصل التوافق بين (بشرر) و(كالقصر) لأن (بشرر) جمع لفظاً ومعنى . و(كالقصر) جمع من طريق اسم الجنس . والمعنى : إن جهنم ترمي بشرر كالقصر كل شررة كقصرة وهي الشجر العظام ، والله أعلم .

فإن قيل : ما عِلَّة وضع القَصر موضع القصور ؟ قال أهل العلم : الأول أعمُّ وأكثر ؛ لأنَّ اسم الجنس يدخل فيه كل أفراده ، والجمع لا يدخل تحته إلا المفردات[2] ، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ قوله : ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ البقرة : ٢٨٥ ، يقرأه : وكتابه ، ويقول : الكتاب أكثر من الكُتُب[3] . وعليه فالقصر أكثر من القصور ، فضلاً عن أنَّه يوافق فواصل الآيات ، قال ابن جرير الطبريّ : " وفعل ذلك توفيقاً بين رؤوس الآيات ومقاطع الكلام ، لأنَّ العرب تفعل ذلك كذلك ، وبلسانها نزل القرآن "[4] .

وقد قرئ (كالقَصَر)[5] وهي : أعناق الإبل أو أعناق النخل ، وهو مثل : شجر وشجرة، فهو اسم جنس أيضاً . لأن اسم الجنس يفرق بينه وبين مفرده بتاء التأنيث .

(١) انظر جامع البيان : ١٣٧/٢٤ ، ومعاني القرآن للأخفش : ٥٦٣/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه : ٢٦٨/٥.

(٢) انظر الكشاف : ٣٥٨/١ .

(٣) انظر جامع البيان : ١٤٨/٥ ، والكشاف : ٣٥٨/١ .

(٤) انظر جامع البيان : ١٣٩/٢٤ .

(٥) نقلها ابن جني من رواية ابن حاتم من قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ، انظر المحتسب : ٣٤٦/٢ .

الخاتمة

بعد معاينة الآيات القرآنية البليغة التي ضمّها كتاب الله تعالى المنزّل بلغة العرب والذي هو الميدان التطبيقي لتلك اللغة لمعرفة العلل التي أدت إلى وضع المفرد موضع الجمع انتهيت بعون الله وتوفيقه إلى جملة من النتائج كان أهمها :

- تقييد سيبويه والمبرد من بعده المفرد الموضوع موضع الجمع بالضرورة الشعرية لا وجه له لكثرة النصوص النثرية التي تخالفه وعلى رأسها القرآن الكريم .
- أَنَّ وضع المفرد موضع الجمع يكون لدواعٍ إما صوتية كموافقة الفاصلة ، وإما معنوية وهي الإشارة إلى الواحد كما في قوله عز وجل : ثم يخرجكم طفلاً ، أي يخرج كل واحد منكم طفلا فيتحقق معنى الجمع .
- إفراد اللفظ مع إرادة الجمع إنَّما هو لقصد التنبيه على الاشتراك في الصفة ، وأن كل واحد من الجماعة مشترك في الوصف لا فرق بين أحد منهم ، فلما كان المقصود منه ذلك لم يجمع اللفظ ، فإذا جُمع لم يُرد منه التنبيه على هذا الاشتراك ، والله أعلم .
- ظهر من خلال البحث أَنَّ القرآن يسعى للمحافظة على المعنى المراد من طريق اختيار اللفظ المناسب ، فهو يضع اسم الجنس أو المصادر المناسبة لرأس الآية ، والمؤدية للمعنى المطلوب ، فيجمع بين اثنين ، وضعِ لفظٍ مفردٍ يناسب الفواصل ، ويؤدي معنى الجمع من غير إخلال بالمعنى .
- أَنَّ القرآن العظيم يضع المفرد المحتمل لأكثر من معنى موضع الجمع تنويعاً للمعاني ، وهذا لا يتحقق إن جيء باللفظ مجموعاً ، لأَنَّه حينئذ يدل على معنى واحد ، من ذلك وضع (إمام) موضع (أئمة) و(سامر) موضع (سمّار) .
- أَنَّ القرآن إذا أفرد لفظاً وجعل في مقابله جمعاً دلَّ ذلك على فضيلة المفرد وشرفه ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ النحل: ٤٨ وقوله : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾الأنعام : ١ وقوله ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ الأحزاب : ٥٠

Singular Words Denoting Plural Meaning in the Glorious Qur'an

Dr. Riyadh Younis Khalif

ABSTRACT

This paper aims at reviewing the ayat in which the singular replaces the plural explaining the reason of the singular instead of the plural. As I think, I was able to enumerate the singular utterances instead of the plural ones. I explained their meaning, depending on sayings of linguists and interpreters, presenting my opinion about them. The paper is starts with an introduction. I found it suitable to review the utterances according to their appearance in the Holy book. It became clear to me that the analysis of the used texts led to a number of conclusions which are mentioned in the final section.